المحاضرة الرابعة: الخطاب والمنهج المقارن

تمهيد:

في سعينا لفهم النصوص والممارسات التواصلية بعمق، لا غنى لنا عن أدوات تحليلية تتيح الكشف عن طبقات المعنى والسلطة الكامنة فيها. تمثل دراسة الخطاب مدخلًا أساسيًا لتشريح كيفية بناء الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي عبر اللغة. ولكن لفهم ثراء وتنوع هذه البنى الخطابية، يصبح المنهج المقارن أداة حيوية. إن هذه المحاضرة تستكشف العلاقة الجدلية بين هذين المجالين، موضحةً كيف يمكن للمقارنة المنهجية أن تثري تحليلنا للخطابات المختلفة وأن تكشف عن أنساقها الخفية.

أولا-مفهوم المنهج المقارن:

في البحث العلمي وتحليل الخطاب، يُعرف المنهج المقارن بأنه الإجراء المنهجي الذي يقتضي دراسة متوازية لظاهرتين أو نصين أو حالتين. الغرض من هذه المقارنة هو تحديد المشتركات والفوارق بينهما، بهدف الخروج بتفسيرات واستنتاجات دقيقة توضح خصوصية كل ظاهرة وتكشف عن العوامل المساهمة في تكوينها ضمن سياقها الخاص.

ثانيا-هدفه:

-الكشف عن الخلفيات: تحديد الأيديولوجيات والمواقف الكامنة وراء كل خطاب، والتي تفسر الاختلافات اللغوية والأسلوبية والحجاجية.

-فهم الخيارات: فهم لماذا اختار كل مُرسِل لغة واستراتيجيات معينة (كلمات، استعارات، أدلة) وكيف تخدم هذه الخيارات أهدافه الخاصة.

-تعميم الاستنتاجات: الانتقال من المقارنة الجزئية إلى استنتاجات أعم وأشمل حول كيفية تشكل الخطاب في ثقافات أو أنظمة مختلفة.

ثالثا-مرتكزات المنهج المقارن في تحليل الخطاب:

لإجراء مقارنة علمية دقيقة، يجب توافر:

قاعدة المقارنة: وهو الأساس المشترك الذي يجعلها قابلين للمقارنة. يجب أن يتشاركا في شيء أساسي (كالظاهرة أو الموضوع أو الوظيفة) قبل البحث عن الاختلافات.

التحليل المنهجي: يتطلب تطبيق المنهج المقارن تحليل كل خطاب على حدة أولًا (وصفيًا)، ثم المقابلة والموازنة بينهما، وأخيرًا تفسير الفروقات المكتشفة.

رابعا-آليات وإجراءات التطبيق:

1-الإعداد وتحديد قاعدة المقارنة (التكافؤ)

هذه هي المرحلة التأسيسية التي تضمن أن المقارنة علمية وليست تعسفية.

أ-تحديد موضوع المقارنة: اختيار الظاهرة أو القضية المركزية التي سيتناولها الخطابان (مثل: التغطية الإعلامية لانتخابات معينة، أو الخطاب الديني حول قضية اجتماعية).

ب-اختيار النصوص المراد مقارنتها: تحديد خطابين أو أكثر يكونان متكافئين بطريقة ما، ولكن يختلفان في عنصر أساسي. يجب أن يكون الاختيار مبررًا.

مثال: مقارنة خطاب حول "اللاجئين" صادر عن وكالة دولية وآخر صادر عن حزب سياسي قومي. (التكافؤ في الموضوع، والاختلاف في المصدر والسياق الأيديولوجي).

ج-تحديد قاعدة المقارنة: وهو الأساس المشترك الذي يمكن من خلاله إجراء المقارنة. يجب تحديد المحور الذي سيتم التركيز عليه (مثل: الأسلوب الحجاجي، أو استخدام الاستعارات، أو طريقة بناء الهوية).

2- الوصف والتحليل المنفرد

قبل إجراء المقارنة المباشرة، يجب تحليل كل خطاب بشكل مستقل أولًا لضمان الفهم العميق.

أ-التحليل السياقي (الخارجي): وصف كل خطاب من حيث:

المرسِل والمتلقي: من يتحدث ولمن ؟ (الجمهور المستهدف).

لهدف والوظيفة: ما الذي يسعى الخطاب لتحقيقه ؟ (الإقناع، الإخبار، التوجيه).

السياق الزماني والمكاني: متى وأين قيل ؟

ب-التحليل النصي واللساني (الداخلي): تطبيق الأدوات التحليلية على كل خطاب:

المفردات: رصد الكلمات المفتاحية، المصطلحات، ونوعية الصفات المستخدمة.

البنية الحجاجية: تحديد الأدلة، المغالطات، وكيفية بناء الاستدلال.

الأدوات الأسلوبية: تحليل الاستعارات، التشبيهات، ونبرة الخطاب (إيجابية، سلبية، حيادية).

3-المقابلة والموازنة (التحليل المقارن)

هذه هي المرحلة التي يتم فيها وضع النتائج جنبًا إلى جنب.

أ-رصد أوجه التشابه: تحديد النقاط المشتركة بين الخطابين (على المستوى البنيوي، أو في استخدام بعض الاستعارات العامة، أو في الهدف النهائي).

ب-تحديد أوجه الاختلاف: وهو الجانب الأهم، ويتم فيه تفصيل الفروقات في المحاور التي تم تحديدها سابقًا:

-كيف يبني الخطاب (أ) صورة "الآخر"؟ وكيف يبنيها الخطاب (ب)؟

-ما هي الأدلة التي يعتمد عليها (أ) (إحصاءات، شهادات) وتلك التي يعتمد عليها (ب) (نصوص دينية، آراء شخصية)؟

-هل يستخدمان لغة مباشرة أم لغة مواربة؟

ج-تنظيم النتائج: عادة ما يتم استخدام جداول مقارنة لتنظيم أوجه الشبه والاختلاف، مما يسهل على الباحث رؤية التباينات بوضوح.

4- التفسير والاستنتاج

هذه هي المرحلة الحاسمة التي ينتقل فيها الباحث من مجرد الوصف إلى التفسير النقدي.

أ-تفسير الفروقات: الإجابة عن السؤال: "لماذا يختلف الخطابان بهذه الطريقة؟"

-ربط الاختلافات المنهجية والأسلوبية بالخلفية الأيديولوجية أو السياق الاجتماعي أو القوة/السلطة التي يمثلها كل مرسل.

-الربط بين الأساليب اللغوية والنتائج المرجوة (مثل: استخدام لغة عاطفية في خطاب شعبي ولغة إحصائية في خطاب رسمي).

ب-استخلاص النتائج العامة: صياغة استنتاجات حول الظاهرة المدروسة بناءً على ما كشفته المقارنة، وتعميم هذه النتائج إن أمكن.

ج-تقييم المنهج: تقييم مدى فعالية المنهج المقارن في تحقيق أهداف الدراسة وفهم أعمق للخطاب.

خامسا-الإيجابيات والعيوب:

الإيجابيات (نقاط القوة)	السلبيات (نقاط الضعف/المخاطر)
1. الكشف عن الأيديولوجيات والسياقات: يسمح بتفكيك آليات الخطاب غير الواضحة عن طريق تسليط الضوء على الاختلافات التي تقف وراءها خلفيات فكرية عميقة.	1. خطر التعسف في المقارنة: قد يُقارن الباحث بين خطابين غير متكافئين في الأساس (يفتقران إلى *قاعدة المقارنة*)، مما يؤدي إلى استنتاجات خاطئة أو سطحية.
2. فهم عميق للأثر: يساعد في تحديد كيف أن خيارات لغوية وأسلوبية محددة هي نتائج لعوامل ثقافية أو تاريخية أو سياسية أوسع، وليس مجرد صدفة لغوية.	2. تجاهل السياق الكلي: قد يركز المحلل بشكل مفرط على العناصر النصية المتقارنة ويتجاهل الخلفية التاريخية أو الاجتماعية الكلية لكل خطاب.
3. التنبؤ وتعميم النتائج: يمكن أن يؤدي إلى وضع نماذج أو تصنيفات لأنواع الخطاب، مما يسمح بالتنبؤ بكيفية تعامل جهات معينة مع قضايا مماثلة في المستقبل.	3. صعوبة العزل (العوامل المتداخلة): غالبًا ما يكون من الصعب عزل العوامل المسببة بدقة؛ فالاختلاف قد يعود لمتغيرات متعددة (الثقافة، اللغة، النوع الخطابي) في آن واحد.
4. تجاوز الوصف إلى التفسير: ينقل التحليل من مرحلة وصف الخطاب إلى مرحلة تفسير دوافعه وأهدافه العميقة.	4. الاستهلاك الزمني والجهد: يتطلب تحليلًا مزدوجًا أو متعددًا، مما يضاعف من الجهد والوقت اللازمين لجمع وتحليل النصوص.